مجلة العميد

Journal Homepage: https://alameed.alameedcenter.iq/
ISSN: 2227-0345 (Print) ISSN 2311-9152 (Online)

ثورة العشرين في التحليل الاجتماعي: علي الوردي أنموذجاً

شاكر سعيد ياسين [1]

١ – الجامعة المستنصرية / كلية الآداب / قسم الانثروبولوجيا والاجتماع، العراق؛
shalbidany@yahoo.com
دكتوراه في علم الاجتماع/ أستاذ

تاريخ الاستلام:
٢٩/ ٣/ ٢٠٢٢
تاريخ القبول:
٦/ ٦/ ٢٠٢٢
تاريخ النشر:
٣١/ ١٢/ ٢٠٢٣

الكلمات المفتاحية:
ثورة العشرين، المجتمع العراقي، علي الوردي، البداوة، النزعة الجلية

السنة(١٢)–المجلد (١٢)
العدد (٤٨)
جمادى الاخرة ١٤٤٥ هـ
كانون الاول ٢٠٢٣ م

DOI:
10.55568/amd.v12i48.213-233

ملخص البحث:

لم تكن ثورة العشرين بالحدث الغفل ضد الاحتلال البريطاني، بل سبقتها أحداث تحررية متناوبة كان أبرزها ثورة النجف، ونشوء الحركة الوطنية في بغداد وانتقالها لسائر المدن على أثر المطالبة بالاستقلال. وكان يوم ٣٠ حزيران عام ١٩٢٠م تتويجا لمسيرة ثورية ومطالب وطنية لم تأتِ أكلها إلا بعد سنوات نظراً لشراسة المحتل كقوة عسكرية منظمة مقابل ضعف الثورة التي قامت بها العشائر بامكاناتها البدائية وعدم انتظامها، أضف إلى ذلك تغلغل الانقسام في المجتمع العراقي ما جعل المحتل يتربص بقادتها ويعيد مسك الزمام بعد أن كانت الكفة الراجحة بيد الثائرين.

جذبت الثورة اهتمام المفكرين والمؤرخين لا باعتبارها حدثا حماسيا عبر عن الروح الوطنية والإرادة الشعبية للعراقيين وحسب، بل لكونها مهدت الطريق لتأسيس كيان جديد تحت مسمى الدولة العراقية والتي أصبحت مستقلة بعد رحيل آخر جندي بريطاني عام ١٩٣٢. غير أن المؤلفات التي كتبت عن الثورة كانت في الغالب سردية تاريخية ركزت بشكلها العام على وطنية الثوار وحماستهم في الدفاع عن وطنهم مقابل همجية جنود الاحتلال وقسوتهم المفرطة. إزاء ذلك ظهرت آراء لعلماء من اختصاصات اجتماعية مختلفة معتمدين المناهج والنظريات العلمية لتحليل الثورة وأسباب انطلاقها وانتكاسها.

يتناول البحث مناقشة آراء عدد من علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة منهم محمد سلمان حسن وكوتلوف بانتهاج المنهج الماركسي، ونظمي في العامل القومي، والوردي الذي تمسك بالمنهج الوضعي الموضوعي دون أن يرتكز على عامل واحد مما جعل دراسته أكثر أهمية وتشويقا من سابقاتها رغم بعض العيوب التي شابتها.

CC BY NC

Twentieth Revolution in Socioanalysis: Ali al-Wardi as an Example

Shakr Sa`aed Yaseen [1]

1-University of Mustansiriyah / College of Arts / Dept of Anthropology and Sociology، Iraq; shalbidany@yahoo.com
PhD in Sociology/Professor

Received:
29/3/2022
Accepted:
6/6/2022
Published:
31/12/2023

Keywords:
Twentieth Revolution, Iraqi society, Alwardi, nomadism, dialectic tendency.

Al-Ameed Journal
Year(**12**)-Volume(**12**) Issue (**48**)
Jumada al-Akhirah1445AH.
December 2023 AD
DOI:
10.55568/amd.v12i48.213-233

Abstract:

The 20th Revolution was not a blind event against the British occupation, but was preceded by alternating revolutionary events, most notably Al- Najaf Revolution, the emergence of the national movement in Baghdad and its transition to other cities for the sake of independence. The day of 30 June 1920 was the culmination of a revolutionary march and national demands that came to fruition only years later, given the ferocity of the occupier as an organized military force in return for the weakness of the revolution embraced by the clans.

This revolution attracted the attention of intellectuals and historians not only as a passionate event that expressed the patriotism and popular will of the Iraqis, but also as paving the way for the establishment of a new entity called the Iraqi State, which became independent after the departure of the last British soldier in 1932. However, the literature on the revolution was often a historical narrative that generally focused on the patriotism and enthusiasm of the revolutionaries for defending their homeland against the barbarity and excessive cruelty of the occupying forces. To this end, opinions have emerged for scientists from various social disciplines, taking scientific approaches and theories to analyze the revolution and the reasons for its start and setback.

The research discusses the views of a number of social scientists, economists and politicians, as Mohamed Salman Hassan and Kotlov have done with Marxism, Wameeth Nathmi in the National pole, and Ali Al-Wardi, who invoked the objective positive approach without basing itself on a single factor, making his study more relevant and interesting than its predecessors, despite some of its shortcomings.

التفسير الماركسي للثورة

جاء التحليل العلمي لثورة العشرين ومعرفة أسبابها الحقيقية وتحليل طبيعتها على يد عدد من الباحثين في علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة. كانت الورقة التي طبعها الدكتور محمد سلمان حسن* بشكل كتيب صغير حول أهمية العامل الاقتصادي في الثورة العراقية، باكورة هذا التحليل المغاير للسرد التاريخي. اعتمد حسن على النظرية الماركسية بشكل مبتسر وشديد الاختزال لا يتلاءم مع نظرية شاملة وعميقة كالنظرية الماركسية. فالثورة برأيه كانت معبرة عن الصراع الطبقي الذي تشكل بعد دخول القوات البريطانية لكونها كانت سبباً في نشوء طبقة من الملاكين والإقطاعيين، وساعد في تحول الملكيات الصغيرة والمتوسطة إلى أيدي الشيوخ الكبار ما دفع صغار ومتوسطي الملاكين إلى أن يقعوا فريسة الديون التي اضطروا إليها لدفع ضرائب الحكومة. فجباية الضرائب أجّجت في نفوسهم الحقد على الطبقة الإقطاعية وكانت منطلقا لاندلاع الثورة. أضف إلى أن السياسة البريطانية ارتكزت على تعيين الشيوخ الموالين لها في مناصب مهمة لقاء استحواذهم ملكيات كبيرة من الأراضي الزراعية مع حصولهم أيضاً على الرواتب والمنح التي كانت تهدى إليهم من سلطات الاحتلال. وهناك عامل اقتصادي آخر ساعد على تفاقم الازمة وهو سيطرة الاحتلال على تجارة العراق الخارجية التي كانت عصب الحياة في المدن. أفضت تلك السياسة إلى زيادة الاسعار والضرائب مما اثقل كاهل الفرد العراقي فازدادت حماسته للمشاركة في مقاومة الاحتلال[١].

لكن التحليل الماركسي المعمق للثورة جاء على يد الروسي كوتلوف الذي وجد أن سياسة المحتل كانت تهدف لضم العراق إلى حضيرة المستعمرات البريطانية وجعله مصدرا للارباح الاستعمارية الفاحشة للاحتكاريين الانكليز باقرار نظام للنهب وفرض الضرائب الباهظة ومصادرة الأراضي واعمال السخرة.

---

١ حسن، محمد سلمان. طلائع الثورة العراقية، العامل الاقتصادي في الثورة العراقية الأولى، ط٢ (بغداد: مطبعة العاني، ١٩٥٨م).

* محمد سلمان (١٩٢٨ م- ١٩٨٩م) اقتصادي عراقي حائز على الدكتوراه من جامعة اكسفورد ويتبنى الفكر الماركسي وله عدد من الكتب المؤلفة والمترجمة منها: التطور الاقتصادي في العراق ج٢، ترجمة كتاب الاقتصاد السياسي لاوسكار لانكه ج٣.

فقد تبنى المستعمرون سياسة توطيد الاحتكار الاقتصادي والسياسي لرأس المال البريطاني، وبذلك اخضعوا مؤسسة الإقراض العثمانية لرقابة الإدارة المدنية مباشرة. وانشأوا دائرة تسجيل ملكية الأرض لنزع ملكيات الأراضي للاستحواذ عليها. وتدفق ممثلو الشركات الانكليزية للحصول على الامتيازات المربحة ومضاعفة استيراد البضائع الصناعية إلى العراق وعرقلة أي نشاط اقتصادي محلي. أدى ذلك إلى عدم اشتراك البرجوازية العراقية في المزايدات التي تجريها السلطات المحلية. وواجهت تجارة المحاصيل الزراعية صعوبات كبيرة في المحافظة على نشاطها بسبب صدور مرسوم تحديد النقل[٢].

ولتكريس الطبقية، شجع الاحتلال على نمو طبقة من زعماء الإقطاع والكومبرادور* والمرابين التي ترتبط مصالحها بالبناء الاقتصادي والاجتماعي المفروض من المحتل، لذا كانت هذه الطبقة من اشد الموالين للمحتل. وعندما بادر الاحتلال إلى إقرار الإصلاح الزراعي عام ١٩١٩م قوبل بالترحيب من كبار الإقطاعيين وأثرياء المدن لأنه كان موجها لنهب الفلاحين من قبل المحتلين والإقطاعيين. أما الملاكون الصغار الذين كانوا يملكون وثائق حيازة الأراضي فقد أصبحوا في ظروف سيئة جدا لان السياسة البريطانية كانت موجهة بالأساس للقضاء على الحيازة الصغيرة للارض[٣]. وفي حين كانت الكومبرادور اكبر الفئات البرجوازية الكبيرة ثراء وتأييداً للاحتلال، كانت البرجوازية الوطنية (الصغيرة) التي تتكون من التجار الذين يعملون في السوق الداخلية وعدد من أصحاب المعامل تؤيد الاستقلال، ولذا استبعدها الاحتلال عن العمل في التجارة الخارجية المربحة وادخال رؤوس أموال جديدة في الصناعة بسبب سيطرة الكومبرادور[٤].

وقد طبع كوتلوف النشاط السياسي بالطابع الطبقي ذاته فيصف نشاط الجمعيات والمنظمات الوطنية بالعمل وفق انتمائها الطبقي. فالحركة الوطنية لم تكن عميقة الجذور

٢ كوتلوف، ل. ن. ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق. ترجمة كرم، عبد الواحد. د.ط. (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧١م)، ١٧_١٢٠.

٣ كوتلوف، ١٢٩.

٤ كوتلوف، ١٣٥_١٣٤.

* الكومبرادور مصطلح سياسي يكثر استعماله من قبل التيارات الاشتراكية واليسارية ويعني طبقة البورجوازية التي سرعان ما تتحالف مع رأس المال الأجنبي تحقيقا لمصالحها وللاستيلاء على السوق الوطنية (ويكبيديا)

وتفتت لأسباب اقتصادية بحتة، لكنها عاودت الظهور بعد الحرب العالمية الأولى، حيث ارتبط نشاط الكتل القومية البرجوازية والإقطاعية بالجمعيات العراقية – العربية (العهد العراقي وحرس الاستقلال) والمنظمات الكردية في المناطق المجاورة. فكان غالبية أعضاء جمعية العهد من رجال الإقطاع الذين ساعدوا الانكليز. ومنهم رجال لعبوا دورا مهما في الحياة السياسية فيما بعد كنوري السعيد وجعفر العسكري وجميل المدفعي. وحدد زعماء جمعية العهد مشروعهم بإقامة دولة للإقطاعيين والكومبرادور العراقيين تحت الوصاية البريطانية. أما جمعية حرس الاستقلال فكانت من طبقة البرجوازية الوطنية التي شملت التجار والمحامين والاطباء والطلبة.. وحظيت بمساندة وتأييد الفئات المتوسطة من السكان في بغداد وبعض مدن الوسط خاصة التجار الصغار والحرفيين، ورفعت شعار الاستقلال التام للبلاد٥. وفقا لذلك – وحسب المنطق الماركسي – كان لابد للثورة أن تنفجر نتيجة لتطور المقاومة العفوية لـ(الجماهير الكادحة) ضد المحتل والطبقات المؤيدة له التي اضطر زعمائها للهرب من الريف إلى المدن للوذ بحماية الانكليز٦*.

يبدو على كوتلوف تأثره بكتاب لينين المعروف (الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية) والنظرية الماركسية حول نمط الإنتاج الأسيوي باعتبار العراق دولة نهرية زراعية لم تدخل في النظام الراسمالي كما دخلته أوربا ولذلك لم تتطور فيها الطبقة العاملة، مذكرا بان بريطانيا دخلت في منافسة رأسمالية عالمية مع محتلين آخرين كالمانيا وفرنسا للاستيلاء على ثروات العراق. بل انه وفي سياق فلسفة التاريخ الماركسية شرح بتفصيل وعمق البناء الاقتصادي والاجتماعي منذ بداية القرن العشرين حيث " ساد العراق بأكمله نظام الإنتاج الإقطاعي. واقترن ثراء وبذخ الإقطاعيين بمنتهى البؤس والحرمان للمنتجين المباشرين للخيرات المادية"٧. وحل الاستعمار الانكليزي ليضاعف من عسف وطغيان الإقطاعيين في الريف والأثرياء في

٥ كوتلوف، ١٣٩_١٤٤.
٦ كوتلوف، ١٧٥ و ١٨٣.
٧ كوتلوف، ٧١ و ٩٩_١٠٢.
* وتعبير الجماهير الكادحة اطلقه كوتلوف على الفلاحين العاملين في اراضي الشيوخ ولا يشمل الطبقة العاملة العراقية لانها " كانت عندئذ قلية العدد وضعيفة سياسيا "، ولانها لم تملك أي نوع من التنظيم فقد اعتبرها جزءا من الطبقة الفلاحية (المرجع نفسه ، ص ٨٧–٩٠، ١٣٤) . وقد وجه الوردي نقدا لاذعا لكتاب كوتلوف والمنهج الماركسي عموما (انظر لمحات اجتماعية ،ج٥ ، ق٢، الملاحق الخمس الاخيرة).

المدن ضد الطبقات الكادحة/ الفلاحين والطبقة البرجوازية الصغيرة التي شملت صغار المنتجين والمثقفين الذين ازداد وعيهم الطبقي والوطني الذي توج أخيرا بالثورة المسلحة.

في نطاق التحليل الماركسي نفسه نجد أن الباحث في التاريخ الاجتماعي حنا بطاطو* – رغم ضخامة انتاجه وأهميته – في كتابه المعروف عن العراق، لم يخصص ولو مبحثا صغيرا عن ثورة العشرين. وجاءت إسهاماته فيها بشكل مقاطع نصية متفرقة من هنا وهناك ذات علاقة بموضوعه الأساس حول تشكل الطبقات القديمة. هذا إذا علمنا أن عنوان الكتاب باللغة الانكليزية والصادر عن جامعة برينتكتون كان: "الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية". كما تجاهل الثورة في كتابه: " الثورات المصرية والسورية والعراقية " الصادر عام ١٩٨٣م عن جامعة جورج تاون. وكان معنيا في كلا الكتابين بدراسة ثورة ١٩٥٨م أكثر من غيرها، ولذلك نجده متحيرا في تعليل ثورة العشرين ونسبتها إلى أي من الفئات داخل طبقاته القديمة، فيقول: " كانت العواطف المحركة للهيجان ضد الانكليز، الذي بلغ ذروته في ثورة ١٩٢٠م المسلحة، قد انطلقت من الجلبيين / التجار المرتبطين بطرق النقل القديمة، أو من الاريستوقراطيين – وهم موظفون مرتبطون بالإدارة العثمانية السابقة– أو من المجتهدين والعلماء الذين يمثلون المفاهيم الاجتماعية الموروثة، أو من المشايخ القبليين الملاكين أو السادة القبليين الذين استاءوا من التصلب الانكليزي غير المعتادين عليه في جمع الضرائب أو أنهم تضرروا كثيرا من الإدارة الانكليزية لمياه الفرات "[٨]. ويرى أن ثورة العشرين "شأن يخص المشايخ " باعتبار أن تاريخ العراق إلى حد تلك اللحظة كان تاريخ مشايخه وعشائره. لذا لم تكن هناك " أية مسحات أو ملامح وطنية " تميز ثورات المنتفضين[٩]**. وأراد بذلك

٨ بطاطو، حنا. الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار، ترجمة. عفيف الرزاز (بيروت: مؤسسة الابحاث العربية، ١٩٩٥م)، الجزء الاول ١١٠ –٢٥٥ –٣٣٠ –٣٤٧ –٤٢٨ الجزء الثاني٣٨١.

٩ بطاطو، الجزء الاول ١٤٧.

* حنا بطاطو (١٩٢٦ – ٢٠٠٠) مؤرخ فلسطيني مختص في تاريخ المشرق العربي الحديث. ربما يكون الأكثر أهمية بين أعماله الأكاديمية بحثه التاريخي الاجتماعي عن العراق الذي يعتبر أهم مرجع عن تاريخ وتطور العراق الحديث.

** الجدير بالذكر ان فالح عبد الجبار – المحسوب ضمن التوجه الماركسي– قد اهمل ذكر الثورة في كتابيه (العمامة والافندي، اللويثان الجديد) رغم انه بحث بعمق الحركات الاحتجاجية في الاول ومشكلة الدولة في الثاني. وبعيدا عن الماركسية فان المرء يشعر بالاحباط عندما يرى باحثا ملهما مثل د.حاتم الكعبي الذي كانت له اليد الطولى في ترسيخ مادة السلوك الجمعي في عدد من مؤلفاته حتى انها كانت ومازالت فريدة على مستوى الوطن العربي، غير ان الكعبي آثر الا ان يكون اكاديميا صرفا ولم يكلف نفسه عناء البحث في الشأن المحلي. فقد خلت كتبه (السلوك الجمعي ١٩٧٣، في علم اجتماع الثورة ١٩٥٩) من أي اشارة لاي ثورة عراقية وكان متعاليا جدا بذكره لثورات الشعوب دون ثورات بلده. اما عالم النفس والكاتب البارع نوري جعفر فكان حماسيا في تاييد ثورة ١٩٥٨ وتحليلها في كتابه (الثورة مقدماتها ونتائجها، ط ١٩٥٨) دون الرجوع قليلا الى الوراء لتحليل ثورة العشرين. وحتى الرسائل والاطاريح الجامعية في علم الاجتماع كانت خلوا من تحليل الثورة سوى اطروحة ناهدة عبد الكريم سنة ٢٠٠٠ والتي لم تتجاوز حدود افكار الوردي.

تغليب مسألة الملكية- ملكية الأرض- على العامل الوطني الحماسي. وهو يتطابق جزئيا مع الوردي كما سنبحث. وكان الحري به أما التوسع في تحليل الثورة ماركسيا أو الاستعانة بمنهج آخر دون أن يترك هذا الحدث المهم من تاريخ العراق مجردا من أهميته.

التفسير القومي للثورة

وبتوجه معاكس لبطاطو يعزو وميض جمال نظمي* لعامل القومية دوراً محورياً في اندلاع العنف بسبب فشل التيار القومي المعتدل الذي كان من أبرز دعاته الوجهاء الملاكون وجماعة العهد في بغداد بقيادة النقشبندي وسليمان فيضي وطالب باشا في البصرة. وقد انسحق هذا التيار بين قطبين متضادين هما الإدارة البريطانية والقوميون المخيبو الأمل[١٠]. وللتأكيد على الروح القومية فان شعارات فصائل الثورة كافة كانت تنادي بالاستقلال والحكم العربي لعراق واحد مع تطلع للوحدة العربية، واتحاد مختلف الطوائف والقوميات والعشائر العراقية ضد الاحتلال في ظل أهداف موحدة وواضحة. وساعدت الثورة في تشكيل نوع من الإدارة الوطنية في المناطق المحررة ورفع العلم العربي فوقها. وكانت الصحف الصادرة (كالاستقلال والفرات) قومية النزعة. أضف إلى تفاعل الثورة مع الحركة القومية في الحجاز وسورية ومصر ومطالبتها بمرشح عربي ورفض المرشحين الأجانب وصولاً إلى دورها الرئيس في تكوين العراق الحديث[١١]. كما أن معظم رجال الدين الذين أسهموا في الحركة (الشيرازي وابنه، الخالصي والصدر، الجزائري وبحر العلوم) كانوا قد قبلوا بشكل جلي برنامج الحركة القومية العربية[١٢].

١٠ نظمي، وميض جمال. الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، د.ط. (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤م)، ٣٥٧.

١١ نظمي، ١٨.

١٢ المرجع نفسه ، ٣٩٦ .

* وميض جمال عمر نظمي (١٩٤١ - ٢٠١٦) حاصل على الدكتوراه في التاريخ السياسي العراقي من جامعة دورهام البريطانية سنة ١٩٧٤ باطروحته عن ثورة العشرين. أسهم في تأسيس حركة الوحدويين الاشتراكيين اليسارية في العراق ١٩٦٢م، التي كانت تدعو لتحقيق الوحدة العربية، وإنجاز العدالة الاجتماعية، وتحرير فلسطين.

في لمحات الوردي

لكن التحليل الحري بالبحث والتحقيق في ثورة العشرين هو ما قدمه علي الوردي* في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث). يختلف الوردي عن السابقين بمسألتين الأولى انه خصص للثورة جزءا بكتابين من تاريخه الطويل عن العراق، والثانية انه صرح باعتماده منهجاً مغايراً للدراسات السابقة. فبعد أن نال من الدراسات التاريخية التي أرخت للثورة بسبب أسلوبها الخطابي الحماسي الذي يمجد الثورة دون النظر إلى الآثار المترتبة عليها، استند الى المنهجية الموضوعية التي تنهل من وضعية اوكست كومت وواقعية دوركايم ونسبية منهايم التي تقوم على "ذكر الأحداث كما وقعت دون تحيز لها أو عليها مع الأخذ بنظر الاعتبار طبيعة المجتمع الذي وقعت فيه الأحداث"[١٣]. وهو ذات المنهج الذي اعتمده – كما يقول – في الأجزاء السابقة. ويصرح الوردي بوضعه قاعدة بحثية مستقاة من المنهج الموضوعي لدراسة المجتمع : " نحن إذ نريد أن ندرس أحداث تلك الأيام لا يجوز لنا أن ننظر فيها بمنظار أيامنا الراهنة "[١٤] .

تأسيساً على هذا المنهج، فان ثورة العشرين تحمل مثلها مثل باقي الثورات محاسن ومساوئ. ولذلك فان الأبطال الذين كانت تحتفي بهم الدراسات التاريخية للثورة كرجال مقدسين، وجدهم منهج الوردي رجالا عاديين لا يختلفون عن باقي البشر لأنهم يسعون وراء مصالحهم، إذ " ليس من المعقول أنهم كانوا في أيام الثورة من طبيعة أخرى "[١٥]. وانتقد الدراسات العراقية، فان الأبحاث الغربية نالت من نقده نصيباً. فيخالف الجنرال لايل برأيه المتطرف حول العراقيين بوصفهم ذوي طبيعة مشاغبة فوضوية لا تحب أي شكل من أشكال الحكومة ولديهم غريزة التمرد على القانون واقتراف الجرائم العنيفة[١٦].

---

١٣ الوردي، علي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (بغداد: مطبعة العاني، ١٩٧٧م)، الجزء الخامس ٣.
١٤ الوردي، ٨٨.
١٥ الوردي، ٤.
١٦ الوردي، ١٤.
* علي حسين الوردي (١٩١٣ – ١٩٩٥) عالم اجتماع عراقي معروف حاصل على الدكتوراه من جامعة تكساس الامريكية سنة ١٩٥٠ واثار الثقافة العراقية بافكار وفرضيات طرحها في مؤلفاته مثل شخية الفرد العراقي ، وعاظ السلاطين ، اسطورة الادب الرفيع.

إذا ما درسنا لمحات الوردي بتأمل سنجده لا يخرج عما تبناه في مؤلفاته السابقة من آراء مثيرة. ففي تحليله لثورة العشرين يمكن تلمس الأفكار الأساسية الآتية: فهم طبيعة المجتمع العراقي، النزعة الجدلية، الأصول البدوية للشخصية العراقية.

اولاً – فهم طبيعة المجتمع العراقي: يؤكد الوردي الطريقة الفهمية التي استقاها من ماكس فيبر لدراسة المجتمع العراقي والتي تشير إلى الفهم التأويلي للفعل الاجتماعي المستند إلى المعنى، وحظي التاريخ بسردياته المطولة على أهمية فائقة لديه كمدخل لفهم العراق.

فعندما يخصص الوردي فصلاً كاملاً عن أسباب الثورة نراه يختلف جذرياً مع أولئك الذين يرهنون الثورة بالعامل الاقتصادي كما فعل حسن وكوتلوف أو بالعشائري كما فعل بطاطو. وكأنه يلمح إلى ما يعرف بعلم الاجتماع بنظرية العوامل المتعددة التي تطورت بداية عند علماء الاجرام. فمع عدم إغفاله العاملين الاقتصادي (الذي وجده الوردي في التضخم النقدي) والبدوي، تبرز لدينا طبيعة المجتمع العراقي وانتقاله مما يسمه بـ "الحكم السائب" الذي اعتاد عليه العراقيون في عهد العثمانيين، إلى الحكم الصارم في عهد الاحتلال " الذي أحدث انقلاباً عجيباً في الطبقات الاجتماعية حيث أصبح المحترم ذليلاً والذليل محترماً "مما ولد لديهم الضجر والتمرد ثم الثورة[١٧]. ولان الاحتلال لم يفهم العراق ملياً، يورد الوردي شواهد تاريخية على ضعف الانكليز – رغم تقدمهم الحضاري – في فهم طبيعة الشعوب، والعراق خصوصاً. فهم ينساقون وراء أطرهم الذهنية، أو ما يحلو له تسميته بـ (التفكير القوقعي) الذي يأسر عقل الإنسان وفق قيمه هو لا قيم الطرف الآخر. فنائب المندوب السامي ارنولد ويلسون* "حين كان يجتمع بالوجهاء والرؤساء في المراكز التي زارها ويسألهم عن آرائهم، لابد أن يحصل منهم على الأجوبة التي يرغب بها. فهو يعتقد أنها آراؤهم الحقيقية ولا يدري أنها آراء اصطنعوها لإرضائه على منوال ما اعتادوا مع الحكام منذ قديم الزمان "[١٨]. وعندما أوعز ويلسون بنشر مقررات سان ريمو التي قضت بالانتداب البريطاني

١٧ الوردي، ١٧_٢٠.
١٨ الوردي، ٢١٢.
* ارنولد ويلسون (١٨٨٤ – ١٩٤٠) الحاكم المدني للعراق في بغداد (١٩١٨ – ١٩٢٠) من قبل الانتداب الإنجليزي. خلفا لسلفه بيرسي كوكس. واجه خلال حكمه ثورة العراقية عام ١٩٢٠م. وأقيل على أثر الثورة ليستبدل ببيرسي كوكس الذي عاد لتهدئة الوضع وقتل في الحرب العالمية الثانية اثناء خدمته كطيار.

على العراق وفلسطين، أصدر معها بلاغاً حول أهمية الانتداب وغايته النبيلة مقارنة بما قاساه العراقيون من الظلم وسوء الإدارة في القرون الماضية. " كان ويلسون يظن انه بمثل هذا الكلام المعسول سيقنع العراقيين بنفع الانتداب لهم، وهذا يدل على جهله بالطبيعة البشرية. فان الكلام مهما كان معسولاً لا يمكن أن يؤثر في العقل البشري إلا إذا كان العقل مستعداً للتأثر به، أما إذا كان العقل غير مستعد فان الكلام قد يؤدي إلى عكس المطلوب منه. وهذا هو ما حدث فعلا عند نشر البلاغ في جريدة العرب، فان الناس اخذوا يعلنون تنكرهم واستياءهم من الانتداب"[١٩].

يمكن القول – واعتمادا على رؤية الوردي – بان جهل البريطانيين بطبيعة العراق الاجتماعية كان له أثره الكبير في اندلاع الثورة التي بدأت شرارتها في الرميثة يوم ٣٠ حزيران ١٩٢٠ على أثر اعتقال الشيخ شعلان ابو الجون ومعاملته بعنف ودونية الأمر الذي اضطر ابو الجون إلى المعاملة بالمثل ومن ثم احتجازه. وذكر الشيخ شعلان كلمة لها فائدتها في هذا المقام توضح العقليتين الانكليزية والعراقية. فقال متوجها للكابتن هات: "إن هذه السياسة التي تسير عليها أنت وحكومتك ستجر الدولة البريطانية إلى عاقبة سيئة لاسيما وان العراقيين تتغلغل النيران في قلوبهم وتتنبه عواطفهم، فاعلم بأنك في العراق لا في هندستان وان العراقيين غير الهنود"[٢٠]. عندئذ ثارت عشائر الظوالم التي يرأسها ابو الجون لإنقاذه من الأسر وامتدت الثورة من بعدها لقبيلة آل حجيم التي تنتمي لها عشيرة الظوالم في السماوة ثم لسائر المدن العراقية.

يقول الحسني إن الذين عهدت إليهم إدارة المناطق المحتلة كانوا يجهلون نفسيات العرب عامة والعراقيين خاصة، بل الظاهر أنهم حسبوا العراقيين هنودا فاسمعوهم قارص القول وعودوا متشرديهم على امتهان الكرامات ومس العواطف وكلم الصدور[٢١].

كل ذلك إما كان غائباً عن اذهان البريطانيين، أو لم يعيروه الأهمية الكافية بسبب (تفكيرهم القوقعي). كما أنهم لم يأخذوا العبرة في ذلك وكانت النتيجة فشلهم في بداية الثورة فشلا ذريعاً.

---

١٩ الوردي، ١٠١_١٠٢.

٢٠ آل فرعون، فريق المزهر. الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها .د.ط.(بغداد: مطبعة النجاح، ١٩٥٢)، ٤٥٧_٤٥٨.

٢١ عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، د.ط. (ايران: مؤسسة المحبين، د.ت) ١٤٦.

فبالإضافة إلى اعتقال الشيخ شعلان، قام الميجر ديلي باعتقال شيوخ آخرين لهم مكانتهم بين العشائر مثل الحاج مخيف وشعلان العطية وفرض الإقامة الجبرية على محسن ابو طبيخ. وأراد أن يلهي العشائر فأمر بحفر جدول بين هور بن نجم والفرات وفرض على كل شيخ أن يحضر للحفر مع عدد من أفراد عشيرته. لكن اجتماع الشيوخ في مكان واحد أدى إلى عكس ما أراده ديلي، لأنهم صاروا يتداولون فيما بينهم للاتفاق وتوحيد الكلمة، وبدأت الهوسات المثيرة تنتشر بينهم، فلما سمع ديلي بذلك أمر بترك الحفر وإعادة العشائر إلى مواطنها[٢٢].

كما أنهم لم يدركوا بان أفراد العشائر لهم باع طويل في القتال واحتراف الرمي والمكر بالعدو وهي ممارسات اعتادوا عليها منذ العهد العثماني حتى عجز الأتراك عن إيجاد وسيلة لردعهم. ولذلك عندما رأى الكابتن هالدين براعتهم في القتال ظن أن ذلك من تدبير ضباط محترفين من بقايا الجيش التركي، لكنه نسي بان "العشائر تمارس الحروب منذ زمن بعيد، وكثيرا ما اشتبكت في معارك ضارية مع القوات التركية، وهي ليست إذن في حاجة إلى من يعلمها فنون الحرب"[٢٣].

وسخر البريطانيون من انتشار الدعوة الثورية في الفرات الأوسط لاعتقادهم بأنها لن تؤثر إلا على أفراد قلائل. فالكابتن مان يذكر أن العشائر كانت راضية عن الحكم البريطاني لأسباب منها زيادة الإنتاج الزراعي وزوال المعارك القبيلة وفتح الطرق وإنشاء السكك الحديدية وإضعاف تعسف الشيوخ.. وكان لهذا التفكير أسوأ الأثر في سلطات الاحتلال. يعلق الوردي على الكابتن مان ويقول بان مشكلته كمشكلة رئيسه ويلسون إذ هو ينظر إلى الدنيا من خلال قوقعته الذهنية لا يعرف غيرها. " فان شيوخ منطقته كانوا يأتون إليه يمدحونه ويمدحون بريطانيا العظمى، وهو يفرح بما يقولون ويصدق به، ولا يدري أنهم قالوا مثل ذلك في العهد التركي مئات المرات، فهي ألفاظ اعتادوا على تكرارها دون أن تكون لها أية أهمية عملية في نظرهم "[٢٤].

الأمر الآخر أن الانكليز مارسوا سياسة توحيد العشائر بدلا من تشتيتها كما كان في العهد العثماني، وذلك باختيار شيخ واحد من كل منطقة أو كل عشيرة كبيرة وتدعيمه بالمال

٢٢ الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الخامس ١٤١.
٢٣ الوردي، الجزء الخامس ٢٣١- ٣٤٢.
٢٤ الوردي، الجزء الخامس ٢١٢_٢١٣.

والسلاح كي يكون مسؤولاً عن الأمن والنظام في منطقته، وهو من جانبه يقوم بتنفيذ ما يأمرونه به ويحمي مصالحهم. يرى الوردي أن هذه السياسة نفعت الانكليز بسيطرتهم على الريف وزيادة المحصول الزراعي لكنها أضرتهم بسبب تفاقم كراهية الناس لهم. وقد اتضح للانكليز خطأ سياستهم هذه عند اندلاع ثورة العشرين. فالكثير من الشيوخ الذين شاركوا في الثورة كانت خصومتهم متوجهة نحو الشيوخ المقربين إلى الانكليز أكثر مما كانت موجهة نحو الانكليز انفسهم[٢٥] [٢٦] *.

واتضح خطأ العقلية البريطانية بعد انطلاق الثورة بأيام عندما أرسل المرجع الأكبر السيد محمد تقي الشيرازي وفداً مكوناً من السيد هبة الدين الشهرستاني والمرزا احمد الخراساني** إلى ويلسون في بغداد لمفاوضته في أمر إيقاف القتال حقنا للدماء، وعرض شروطه لإيقاف القتال، قبل أن تنضم العشائر الأخرى إليه، وهي سحب القوات الانكليزية من منطقة القتال وإعلان العفو العام وإعادة المنفيين. فرفض ويلسون مقابلة الوفد قائلاً للقنصل الإيراني الذي حاول التوسط بينهما: " إني لا أصدق برسالة الشيرازي لأنه هو الذي بذر هذه البذرة وهذا يوم حصادها ". ولم يدر هذا الحاكم بان رفضه ستكون له عواقب وخيمة لأنها كانت مبرراً للشيرازي أن يطلق فتواه الشهيرة التي نصت على أن: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ويجب عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الانكليز عن قبول مطالبهم" [٢٧]

ثانياً – الأصول البدوية للشخصية العراقية: وهي إتمام لما سبق من فهم الطبيعة الاجتماعية للعراق. إذ سبق للوردي أن أسهب في هذا الموضوع في كتبه السابقة ووجدها حاضرة بشكل سافر في تحليله لثورة العشرين. فـــ"فالتراث البدوي كان عاملاً مهماً من عوامل ثورة العشرين على نحو ما

٢٥ الوردي، الجزء الخامس ٢٤.

٢٦ Lyell، Thomas. The Ins and Outs of Mesopotamia (London: A.M. Philpot, 1923), 221_222.

٢٧ Lyell، 234_235.

* وهذا الكتاب ترجم مؤخرا بطبعة محلية بعنوان (دخائل بلاد ما بين النهرين، رؤية بريطانية للاعراف الاجتماعية والطقوس الدينية لشيعة العراق) ترجمة وليد خالد، دار الجزيرة.

** الشهرستاني والخراساني رجال دين ومن اعلام ثورة الشرين.

كان في المعارك العشائرية السابقة"[٢٨]*. وقد انتشرت فكرة الثورة المسلحة في الفرات الأوسط بسبب محافظة عشائر هذه المنطقة على القيم البدوية كالاعتزاز بالنسب والكرامة الشخصية وشدة التمسك بالعصبية القبلية والدخالة والإباء والثار وما أشبه[٢٩]**. وظهرت فكرة الثورة عند رؤساء عشائر المشخاب ثم انتشرت إلى المناطق الأخرى قبل أن تندلع في الرميثة بسبب تقاليد البداوة الراسخة عندهم. بينما كان الحضريون في بغداد وكربلاء والنجف قد تبنوا شعار الاستقلال بالطرق السلمية من خلال الحركة الوطنية[٣٠]. وأثرت القيم البدوية على عشيرة طفيل في الحلة فقاتلت ببسالة منقطعة النظير. والسبب في ذلك أنها كانت ذات سمعة حربية واطئة لما أبدته من ضعف عندما غزتها عشيرة العوابد، فهي تريد استعادة سمعتها في الثورة[٣١]. لم يفهم البريطانيون الأصول البدوية للإنسان العراقي وتصوروا انه سيكون سهل الانقياد. ففي أحد الاجتماعات بين رؤساء العشائر والكابتن مان، كان الأخير قد مد رجليه أمامهم، فزجره السيد علوان الياسري بقوة: " تأدب واعرف من هم الجالسون أمامك "، فجمع رجليه ولم يقل شيئا. وفي هذا الاجتماع بالذات كان مان قد حذرهم من حكومة بريطانيا وقوتها التي اخافت العالم كله. فرد عليه عبد الواحد سكر بالقول: "العرب ليسوا كالهنود، وان العربي ابي الضيم إذا اعتدى عليه أصبح شعاره الموت أو استعادة حقه المغصوب "[٣٢]. ولا ينسى الوردي أن يسوق الشواهد التاريخية على الطبيعة المتقلبة للبدوي أو رجل العشيرة بلا شعور منه. ومن النماذج على هذا التحول شخصية عمران الحاج سعدون الذي كان موالياً للاحتلال لكن بعد معركة الرارنجية العنيفة والحاسمة صار الناس يتوافدون لمنزله مطالبين بانضمامه للثورة. ولم يجد عمران مناصاً من الاستجابة لهم. "فلقد رأى انه لا يستطيع أن يحتفظ بسمعته ومكانته إذا ظل بعيدا عن الثورة"، وكذا الحال مع شخصية مرزوق العواد الذي كان عدو الثورة وأصبح من المتحمسين لها![٣٣].

---

٢٨ . Lyell, 14

٢٩ . Lyell, 113

٣٠ الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الخامس ١١٣.

٣١ الوردي، الجزء الخامس ٢٧٠.

٣٢ الوردي، الجزء الخامس ٢٤٢_٢٤٣; آل فرعون، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية، سنة ١٩٢٠ ونتائجها ٢٠٠.

٣٣ الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ٢٦١.

* وينوه الوردي الى ان العامل البدوي لم يكن العامل الوحيد في الثورة، بل ان هناك عوامل اخرى كان لها اثرها الفعال

** يعود ذلك الى الفرات الاوسط هو المدخل الثاني للعراق بعد منطقة الجزيرة بالنسبة للقبائل البدوية القادمة من الصحراء

وتظهر القيم البدوية بقوة بعد خلو المجتمع من الضبط الرسمي ممثلاً بالدولة أو الحكومة كما حصل في النجف والحلة. إلا انه لم يكن ذا تأثير كبير في كربلاء بسبب وجود المرجعية الشيرازية آنذاك. غير أن ابرز المظاهر البدوية كانت قد استفحلت في منطقة الفرات الأعلى التي توصف بأنها " اشد مناطق العراق قربا إلى روح البداوة " وخصوصاً المعارك الضارية بين عشائر عانة وراوة التي استخدمت فيها الأسلحة الثقيلة[٣٤].

يغالى الوردي لاحقاً في العامل البدوي إلى درجة انه يعتقد بان انتشار الثورة لم يكن بدافع الوطنية الذي يسخر منه كونه " يصلح في مجال التوجيه للناشئة الجديدة انما هو لا يصلح في مجال البحث العلمي ". لان انتشارها كان بسبب قوة العشائر في المال والسلاح مقابل ضعف الجيش الانكليزي في الأشهر الأولى، وان بعض العشائر انضمت للثورة ابتغاء " الفوز بالغنائم والفرهود أكثر من المطالبة بالحرية والاستقلال "، فضلا عن عوامل الدين وتأثر الناس بإشاعات انتصار الثوار[٣٥]. فانتشار الثورة شرق الديوانية كان بسبب نشاط سعدون الرسن رئيس آل حمد من عشيرة الاقرع، وكان الانكليز قد فضلوا غيره لرئاستها. أضف إلى عداوته مع علوان الحجالي رئيس آل زياد المقرب من الميجر ديلي. فكان ذلك يسوء سعدون ويغضبه، واخذ يدعو للثورة خصوصاً بعد أن سمع من ديلي كلاماً معنفاً. بينما قام غريمه الحجالي بتحريض ديلي ضده وأرسل الأخير قوة لنهب بيته وإحراقه، وتأهب آل حمد للأخذ بالثار من الحجالي فاحرقوا بيته وقتلوه. ثم ارسل ديلي قوة صغيرة للانتقام من آل حمد وجرت معركة شديدة الضراوة بينهما كان على أثرها اندلاع الثورة في هذه المنطقة بعد أن انضمت عشائر أخرى لآل حمد. لكن سعدون تحول فيما عن حماسه البدوي وتراجع عن الثورة بعد قيام شعلان العطية باقناعه، بينما تحمس الأخير للانضمام للثورة[٣٦].

لكن عنصر الوطنية الذي أهمله الوردي كان له أثر لا يقل عن باقي العناصر كالقيم البدوية والدينية قبل بدء الثورة وبعدها. إذ نشأت الحركة الوطنية التي طالبت بالاستقلال بطريقة سلمية في بغداد وكربلاء والنجف وهذه استمرت بعد قيام الثورة بدعمها ونشر

٣٤ الوردي، ١٣٦_١٤٤ و ١٠١_١٠٧.
٣٥ الوردي، ٣٤٢_٣٤٥.
٣٦ الوردي، ٢٦٥_٢٦٣; الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ٢٦٦_٢٦٩.

أخبارها ودعم الثائرين خصوصاً في بغداد[٣٧]*. كما أن وطنية المرجع الشيرازي أثرت هي الأخرى على الثوار فاخذوا يتهافتون على جبهات الحرب في سبيل نيل الاستقلال. يقول الشيرازي بكلمة بليغة ومؤثرة لرؤساء القبائل: "إن ابني ومن معه أبعدوا في سبيل القضية العراقية، فلا ينسينكم إبعادهم قضيتكم ولا تشتغلوا بطلب عودتهم عن المطالبة بحقوقكم، ولا تجعلوا القبض عليهم سبباً لحمل السلاح فتلهيكم القضايا الشخصية عن المطالب العامة، وإياكم أن تجردوا سيفاً ولو رأيتموني بيد الانكليز إلا أن يسوق الانكليز جيشاً لمحاربتكم بسبب إصراركم على المطالبة بحقكم المغصوب، فهناك يجب الدفاع، ولا تذكروا في دفاعكم إلا القضية العراقية والاستقلال الناجز التام.. أني قد فديت استقلال العراق بولدي ومن عز علي وأنا مستعد بأن أفديه بنفسي وهي قصارى ما أملك "[٣٨].

ثالثا- النزعة الجدلية[٣٩] **: عندما يحلل الوردي ثورة العشرين تهيمن عليه الفرضية التي طرحها من قبل عن المجتمع العراقي وهي شيوع النزعة الجدلية التي اعتبرها مشكلة وظاهرة تميز العراقيين من غيرهم. فالنزعة الجدلية تجعل من الشعب أكثر ميلا للقراءة والاطلاع وأوسع أفقاً من الناحية الذهنية، ولكنها من الناحية الأخرى تجعله مشتت الأهواء والآراء، لا يستقر على مبدأ واحد مدة طويلة، ولا يعجب بزعيم أو يلتف حوله ويستمر على تأييده[٤٠].

وفي ثورة العشرين نجد النزعة الجدلية التي فرقت العراقيين في آرائهم بين شد وجذب، واضحة المعالم وكانت عاملاً لتشتتهم ومن ثم هزيمتهم. ففي الاجتماعات السرية التي مهدت للثورة، كان الخلاف واضحاً بين مؤيد ومعارض. وحتى المرجع الشيرازي لم يخفِ تردده بادئ الأمر لشكه في قدرة العشائر على مناوئة قوة ضاربة كقوة الانكليز. برر أحد المعارضين وهو

٣٧ محمود العطية، بغداد وثورة العشرين، د.ط. (بغداد: مطبعة الشعب، ١٩٧٧)، ٢٤_٣٤.
٣٨ الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ٢٣٦.
٣٩ علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي(بغداد: مطبعة العاني، ١٩٦٥)، ٢٨٨_٢٩٠.
٤٠ الوردي، ٢٩١.
* ومن المفارقات ان الوردي خصص فصلين (٧ و ٨) للحركة الوطنية في هذه المدن!
**النزعة الجدلية عند الوردي تختلف عن المنهج الجدلي الماركسي (الديالكتيك) ، فهذا الاخير مشتق عن المنهج الجدلي الهيجلي ويؤسس التاريخ الاجتماعي على الفكرة ونقيضها ونقض النقيض فيما يعرف المادة الجدلية. اما النزعة الجدلية عند الوردي فهي خاصة بالمجتمع العراقي وتعود اصولها الى الفكر المعتزلي، وخلاصتها ان الفرد العراقي مولع باثارة الجدل حول موضوع معين والتشعب فيه لاثبات الحق (وليس الحقيقة) عند طرف مقابل الطرف الآخر، وهو يعتبر الجدل عامل مهم في استفحال ازدواج الشخصية. ومن اسباب النزعة الجدلية هو التناقض بين التفكير المثالي للعراقيين الذي استقوه من علي بن ابي طالب، وبين الواقع الاجتماعي. وساعد المعتزلة على تطور الجدل بسبب استخدامهم للاقيسة المنطقية وجعلوا الناس يتجادلون حول عقائدهم في المجالس

خيون العبيد سبب اعتراضه على الثورة المسلحة، أن العراقيين مختلفون وليسوا على رأي واحد والسبب برأيه هو حال العشائر التي يكثر فيها الحسد والمنازعات والدسائس[٤١].

وكان هذا الأمر واضحا بعد انطلاق الثورة حيث بقيت عشائر الرميثة تقاتل وحدها زهاء أسبوعين دون أن تسرع إليها أية عشيرة. ويعزو الوردي ذلك إلى ما كان بين عشائر الفرات الأوسط من عداوات وأحقاد وثارات. فكانت كل عشيرة تخشى أن تشارك في الثورة فينتهز خصومها الفرصة ويتآمروا مع الانكليز للانتقام منها. وكان الانكليز يدركون ذلك فاخذوا يستغلونه بشتى الوسائل، وبذلوا فيه الأموال الطائلة٤٢. مثال ما حصل مع الشيخ نجرس الكعود أحد رؤساء الدليم. إذ كان شديد العداء للانكليز لسببين أحدهما أن منافسه على رئاسة الدليم هو الشيخ علي السليمان، ولما كان السليمان مواليا للانكليز صار نجرس معاديا لهم. والثاني انه كان له ثأر مع الانكليز لان ليجمن قتل أخاً له اسمه صبار. فاتفق نجرس مع شيوخ آخرين للإغارة على الانكليز. غير أن الانكليز أغروا الشيخ عاكوب رئيس البو حمد بمرتب شهري وأراضٍ في القيارة في سبيل التصدي لنجرس وأصحابه، وتمكن من استعادة بعض الغنائم منهم[٤٣].

لكن أبرز معالم الخلاف ظهرت في وقت الاستفتاء. ففي اليوم المحدد للاستفتاء ١٣ كانون الأول ١٩١٨م حضره ويلسون ووجهاء النجف، وسألهم ويلسون عن رغبتهم بحكومة بريطانيا أم بحكومة وطنية؟ وحصل الخلاف في الرأي، فهادي النقيب يقول بأننا لا نرضى بسوى بريطانيا، ورد عليه عبد الواحد الحاج سكر، بل نريد حكومة وطنية. وبعد فشل هذا الاجتماع، عقد آخر للغرض نفسه، وهنا ازداد الجدل وانقسموا إلى فئات تطالب بما ترى فيه مصلحة لها. فقد طالبت فئة بالالتحاق بإيران، وأخرى طالبت بأمير غير عربي، وثالثة بالجمهورية، والرابعة بأمير عربي، والخامسة طالبت بالحكم البريطاني. وحصل ذات الخلاف بين وجهاء كربلاء والكاظمية بعد عدة اجتماعات[٤٤]. أما في بغداد فكان الخلاف والانقسام

٤١ الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الخامس ١٢٥_١٢٨.
٤٢ الوردي، الجزء الخامس ٢٣٩.
٤٣ الوردي، ١٤٤_١٤٥.
٤٤ الوردي، ٧٠_٧٥.

أشد وأدى إلى توتر بين المنقسمين. فقد نظم اليهود والنصارى مضبطة خاصة بهم تطالب بالحكم البريطاني، ونظم بعض الشيعة والسنة مضابط تطالب بالحكم البريطاني، وبينما كانت مقاهي بغداد بؤرة لمعارضة الحكومة، كانت دواوين بعض الأسر البغدادية المعروفة مؤيدة لها ومتذمرة من المعارضة. يقول الوردي أن الاستفتاء أثار في المجتمع البغدادي جواً من التوتر والصراع حيث انقسم البغداديون إلى فريقين يشتم كل منهما الآخر ويوجه إليه التهم القبيحة[٤٥]. وقد تكون كلمة الحاج محمود باشا لحاكم البصرة بشأن الاستفتاء أهم مؤشر لحالة الانقسام وأثر الجدل في الشخصية العراقية. إذ قال: "إنكم أيها الانكليز لا تفهمون أوضاعنا. فحين يقوم شخص كبير في مجلس ويقترح أمراً من الأمور نشعر أننا ملزمون بالموافقة على اقتراحه تحت تأثير المجاملة مع شي من الخوف. وبسبب الخجل الطبيعي لا يستطيع سوى القليلين أن يجرؤوا على إبداء الرأي"[٤٦].

لاحظ الوردي أن النزعة الجدلية تزداد في الفرات الأوسط لأنه مركز التشيع، والتراث الشيعي يميل إلى التفلسف والجدل والنقد السياسي، ولهذا أصبح رؤساء الفرات الأوسط أكثر من غيرهم ثقافة ومقدرة على الجدل وانهماكا في السياسة. فهم لكثرة ترددهم على العتبات المقدسة لابد أن يقتبسوا منها تلك النزعة قليلاً أو كثيراً[٤٧].

لقد كشفت التعددية المذهبية والعرقية عن حقيقة الانقسام وتعدد الآراء والولاءات بحيث يجد بعضهم صعوبة في الثبات على ولاء أو رأي واحد. وتلمس الوردي الصراع النفسي الناتج عن الصراع بين الولاءات في بعض رجال الثورة الذين كانوا يجمعون بين الولاء لقومهم من جهة والولاء للانكليز من جهة ثانية[٤٨]. وكانت الثورة فرصة للتنفيس عن الأحقاد القديمة واتهام شخصيات معينة بتهم جاهزة (كالخيانة) لغرض تسقيطها وتشويهها كما حصل مع الشيخ علوان سعدون الذي اتهمه أهالي النجف بالولاء للانكليز بسبب معاركه القديمة ضدهم. وظلت تهمة الخيانة لصيقة به إلى أن برأه منها علوان الياسري احد أقطاب الثورة[٤٩].

٤٥ الوردي، ٨٤_٨٥.
٤٦ الوردي، ٨٧.
٤٧ الوردي، ١١٤.
٤٨ الوردي، ٣٢٠.
٤٩ الوردي، ٣٢٢_٣٢٣.

ووقع أهالي النجف فريسة الصراع النفسي والاجتماعي حول شخصية حميد خان وانقسموا إلى فئة تحبه لمناقبه الشخصية وأخرى تبغضه لعلاقته الوثيقة بالانكليز. يرى الوردي بأن هذا الصراع عمَّ العراق بسبب التفاوت بين المقاييس القديمة لتقدير الرجال والمقاييس الجديدة التي جاءت بها الثورة[٥٠].

الجدير بالأهمية أن العشائر اختلفت أيضاً في نسبة أبطال الثورة إلى جهة بعينها. فموقد الثورة شعلان ابو الجون اختلفت الآراء بشأن علاقته بالحركة الوطنية. فمنهم من يرى علاقته بحزب الحرس وآخر يرى انه من جملة المجتمعين في كربلاء في أثناء زيارة النصف من شعبان... واختلف أهالي بغداد في اسم ومحلة رجل عامي أخرس اعتبر شهيداً بعد أن دهسته سيارة إنكليزية في أثناء تظاهرة احتجاجية، فصار ينسب إلى أكثر من محلة سكنية[٥١]. وحصل جدل مثير بعد الثورة حول انتساب الثورة مناطقياً وعشائرياً[٥٢].

ولم تكن القوة الضاربة للانكليز وتفوقهم العسكري كافيين لإنهاء الثورة، بل إن عنصر الخلاف الذي يتغذى من النزعة الجدلية قد أسهم بذلك، ورأى فيه الانكليز عامل قوة لهم. فنرى العداوة القديمة بين عشائر عانة وراوة قد فرقت صفوفهم في أثناء الثورة. إذ كانت راوة موئلاً للثوار بينما كانت عانة مقرا للسلطة الإنكليزية[٥٣]. ونشبت الخلافات العشائرية إثر المنافسة على الرئاسة العامة داخل العشيرة الواحدة كما حصل في عشيرة المياح في منطقة الحيّ عندما قتل عبد الله أخاه عبد المحسن ومن ثم دخول الأخ الثالث بلاسم في صراع دموي للأخذ بثأر أخيه المغدور. يؤشر الوردي إلى "أن الانكليز استبشروا بهذا النزاع لأنه اشغل العشيرة عن التفكير في الانضمام إلى الثورة" واستمر النزاع بين الأخوين حتى بعد انتهاء الثورة[٥٤].

٥٠ الوردي، ٣٠٩_٣٠٨.
٥١ الوردي، ١٧٩_١٨٠ و ٢٢٢_٢٢٣.
٥٢ الوردي، ١٩١_١٩٣.
٥٣ الوردي، ١٠١.
٥٤ الوردي، ٩٨_٩٩.

الخاتمة

تناولت العلوم الاجتماعية ثورة العشرين بمنطق الايدلوجيا التي عاصرتها، فجاءت تحليلاتها متناغمة مع الفكر الماركسي تارة والقومي تارة اخرى دون الاخذ بالأسباب الاجتماعية. وهذا لا يعني انها قد جانبت الصواب تماماً، فلا تخلو ثورة العشرين من العناصر الاقتصادية والطبقية التي ركز عليها كوتولوف، او القومية العروبية التي أخذت من جمال نظمي جل اهتمامه، الا ان وجه القصور تداركه الوردي عندما استوعب الدرس واستفاض بتحليل اسباب قيام الثورة وعزاها الى العوامل الاجتماعية التي سبق وان طرحها في مجمل كتاباته وهي: الطبيعة الانقسامية المجتمع العراقي، والاصول البدوية للشخصية العراقية، والنزعة الجدلية. هذه العوامل كانت سبباً في ازعاج البريطانيين ونشوء ردود فعل قوية تجاه الاحتلال اثمرت عن ولادة ثورة مسلحة تحملت العشائر الجنوبية آلامها الى النهاية، لكن هذه العوامل نفسها – لاسيما النزعة الجدلية –تسببت ايضاً في افشال الثورة واجهاض حلم الانتصار على الانكليز الذين ما برحوا يتكئون على روح الانقسام بين افراد العشائر وانتهازها فرصة للانتقام منهم بطريقة مروعة.

المصادر.

آل فرعون، فريق المزهر. الحقائق الناصعة في الثورة العراقية، سنة ١٩٢٠م ونتائجها. بغداد: مطبعة النجاح، ١٩٥٢م.

الحسني، عبد الرزاق. الثورة العراقية الكبرى. د.ط. ايران: مؤسسة المحبين، د.ت.

العطية، محمود. بغداد وثورة العشرين. د.ط. بغداد: مطبعة الشعب، ١٩٧٧م.

الوردي، علي. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. بغاد: مطبعة العاني، ١٩٦٥م.

_____.. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. بغداد: مطبعة العاني، ١٩٧٧م.

بطاطو، حنا. الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار. ترجمة. عفيف الرزاز. بيروت: مؤسسة الابحاث العربية، ١٩٩٥م.

حسن، محمد سلمان. طلائع الثورة العراقية، العامل الاقتصادي في الثورة العراقية الأولى. ط٢. بغداد: مطبعة العاني، ١٩٥٨م.

كوتلوف، ل. ن. ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق. ترجمة. عبد الواحد كرم. د.ط. بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧١م.

نظمي، وميض جمال. الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق. د.ط. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤م.

References.

Al Atiyya، Mahmud. Baghdad wa Thawrat al-'Ishrin. n.ed. Baghdad: Matba'at al-Sha'ab، 1977.

Al Far'awn، Fariq al-Muzhahar. Al-Haqaiq al-Nas'ah fi al-Thawrah al-'Iraqiyah، sanat 1920 wa Nata'ijuha. Baghdad: Matba'at al-Najah، 1952.

Al-Hasani، 'Abd al-Razzaq. Al-Thawrah al-'Iraqiyah al-Kubra. n.ed. Iran: Mu'assasat al-Muhibbin، n.d.

Al-Wardi، 'Ali. Dirasah fi Tabi'at al-Mujtama' al-'Iraqi. Baghdad: Matba'at al-'Ani، 1965.

Al-Wardi، 'Ali. Lamhat Ijtima'iyah min Tarikh al-'Iraq al-Hadith. Baghdad: Matba'at al-'Ani، 1977.

Battawu، Hanna. Al-Shuyu'iyyun wa al-Ba'thiyyun wa al-Dubaat al-Ahrar. Translated by. 'Afif al-Razzaz. Beirut: Mu'assasat al-Abhath al-'Arabiyya، 1995.

Hasan، Muhammad Salman. Tala'i' al-Thawrah al-'Iraqiyah، al-'Amil al-Iqtisadi fi al-Thawrah al-'Iraqiyah al-Ula. 2ed. Baghdad: Matba'at al-'Ani، 1958.

Kutluf، L.N. Thawrat al-'Ishrin al-Wataniyah al-Tahririyah fi al-'Iraq. Tarjamah. 'Abd al-Wahid Karam. n.ed. Baghdad: Dar al-Hurriyah lil-Tiba'ah، 1971.

Nadhimi، Wamiid Jamal. Al-Juthur al-Siyasiya wa al-Fikriyya wa al-Ijtima'iyah lil-Haraka al-Qawmiyya al-'Arabiyya (al-Istiqlaliya) fi al-'Iraq. n.ed. Beirut: Markaz Dirasat al-Wihdah al-'Arabiyya، 1984.